فن العمارة
في الدولة الأموية

للمستشرق الكبير الأستاذ كرنويل

كانت غالبية العرب في أيام الجاهلية بدواً يعيشون في الخيام . ولذلك فقد كان طبيعيًّا أن تكون لديهم فكرة بسيطة عن فن البناء ، أو ألاّ تكون لديهم فكرة على الاطلاق . وعلى هذا ، ففي العصور الاسلامية الأولى لم يجلب المسلمون فناً جديداً للبناء الى البلاد التي افتتحوها . وكانوا يقيمون شعار دينهم في أبنية غاية في البساطة .

ولما كان فن البناء مجهولاً في معظم أنحاء الجزيرة العربية أو كاد ، فأحرى بنا أن نطلق عبارة (العمارة الاسلامية) على الفن الذي نما وتطور نتيجة لغزوات العرب وفتوحاتهم بدلاً من عبارة (العمارة العربية) . ولم يهتم الرسول نفسه ، صلوات الله عليه ، بالبناء والعمارة . وقد روي عنه ، صلى الله عليه وسلم ، انه أنّب زوجته أم سلمة لبنائها حائطاً أمام باب دارها قائلاً ما معناه « إن أخسر ما يأكل مال المؤمن البناء » وتفيد الأوصاف المطلوبة التي وصلت الينا عن منزله ، عليه الصلاة والسلام ، انه كان بيتاً متناهياً في البساطة وكذلك كانت المساجد الأولى التي كان العرب يقيمونها في مضارب الخيام التي كانت تستقر فيها جيوش الفتح فوق الهيرات أو الأراضي المستوية مثل البصرة والكوفة والفسطاط .

ولكي نفهم لماذا اتخذ فن العمارة الاسلامي المبكر ، الشكل الذي اتخذه ، علينا أن نتعرف ظروف الغزو العربي الذي تفرع الى حرب في جبهتين . فقد تقدمت الجيوش العربية شمالا من شبه الجزيرة مخترقة الطريق الذي تحتذيه اليوم سكة حديد الحجاز تقريباً ثم انقسمت في النهاية الى جيشين ، واصل الأول سيره نحو الشمال ثم انحرف فيما بعد نحو سورية عند بلوغه من القدس ودمشق ، بينما اندفع الجيش الآخر الى الشمال الشرقي لكي يغزو العراق ثم بلاد فارس من بعدها .

وسرعان ما تبين هذان الجيشان العربيان أنهما قد أصبحا في منطقتين متباينتين في ثقافتهما كل التباين . فقد ألفى الجيش الأول نفسه في بلاد طالما خاضعة للنفوذ اليوناني والروماني زهاء ألف عام ، بينما كانت المنطقة الأخرى متأثرة بفن الساسانيين الفارسيين

وثقافتهم . وبالاضافة الى ذلك كانت المواد الأولية الميسورة تفرض شروطاً خاصة على فن البناء . وكانت هذه الشروط كذلك متباينة . فقد كانت سورية مورداً لأحجار البناء الفاخر والأخشاب . في ذلك الوقت كانت لبنان أهم مورد للأخشاب في العالم ولم تكن أشجارها قد اقتلعت بعد ، بينما كانت العراق وإيران منطقتين من العسير الحصول على الأحجار في جزء كبير منهما ، وكانت الأخشاب في غاية القلة والندرة . ومن هنا كان هذان النوعان المختلفان اللذان نلاحظهما في فن البناء الاسلامي المبكر .

وأول مساجد اتخذت في سورية كانت في الأصل كنائس ، تم تقسيمها أو تحويلها كأول مسجد أقيم في حماة . وليس هناك في الواقع ما يجعلنا نعتقد أن العرب قد بنوا مسجداً لكي يستعمل كمسجد إلا في عهد الخليفتين الأمويين المشهورين عبد الملك والوليد ، وذلك في أخريات القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديين .

ودامت هذه الحال حقبتين من الزمن لم يكن يحدو العرب في خلالها أي طموح في فن البناء ، إلى حد أنهم لم يبدوا أقل رغبة في الانتفاع بالأكفاء المتقدمين في هذا الفن من أهالي البلاد التي افتتحوها . بل إنهم حينما بدأوا في النهاية يشعرون بهذا الطموح ، كان ذلك راجعاً ، على الأكثر ، إلى أسباب سياسية ، وإلى رغبة الخليفتين عبد الملك والوليد في إظهار أن الحضارة الاسلامية جديرة بأن يكون لها من البهاء والرونق ما للحضارة المسيحية . عندئذ رجعوا إلى رجال الفن المعماري الساسانيين في الجبهة العراقية ، وإلى السوريين في الجبهة السورية . وأقدم بناء إسلامي بقي حتى وقتنا هذا ، هو قبة الصخرة البديعة في القدس التي بناها عبد الملك بن مروان في عام ٦٩١ للميلاد . فقد كان يريد أن يجعل من الصخرة مثابة للحج بدلاً من الكعبة . واقتضى ذلك إقامة مشهد أو مزار فوق المكان المقدس الذي يتم حوله الطواف . وقبة الصخرة هي بناء مستدير ذو مركز تعلوه قبة . وهو مشتق أو بالأحرى متطور عن الأبنية المستديرة النصرانية ذات القباب التي منها ضريح سانت هيلينا في روما وكنيسة القيامة في القدس ؛ لأن هذا الطراز كان أحسن وأنسب لإجراء الطواف حول الصخرة المباركة التي تقع تحت القبة مباشرة .

وإذا استعرضنا فن البناء في العصر الأموي رأينا أن جميع الآثار التي بقيت من ذلك العصر حتى الآن ، باستثناء واحد ، توجد في سورية . ولا عجب في ذلك فقد كانت سورية قاعدة الخلافة الأموية .

ومعظم هذه الآثار رائعة حقاً ، ومبنية بالحجر ، وذات أقواس ترتكز فوق أعمدة رخامية ، ومزينة من الداخل أبهى زينة وأروعها . وتكاد المساجد تكون منطاة دائماً

(البقية في آخر باب الاخبار العلمية صفحة ٢٦٠)